٤

بين الحضارة والأخلاق

١ ــ من تراثنا العربى قبل الإسلام

عندما بدأت فى إعداد هذه الدراسة رجعت إلى كتاب « بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب » لعلامة العراق الكبير السيد محمود شكرى الألوسى ، لأرى كيف عالج موضوعه الضخم معالجة احتفظت بمنزلتها فى تراثنا العربى ــ فوجدته يبدأ بذكر مزايا العرب من الفصاحة والإبانة وقوة الحافظة ، ويطيل الوقوف عند كرم العرب وسخائهم ، ذاكراً من نصوص أدبنا العربى ما يوضح نظرتهم إلى المال . وأكتفى منها بما قاله جابر بن حيان (١ : ٦٧) :

فإن يقتسم مالى بَنِىَّ وإخوتى ... فلن يقسموا خلقى الكريم ولا فعلى [١]

أهين لهم مالى ، وأعلم أننى ... سأُورثه الأحياءَ ، سيرة من قبلى

وما وجد الأضياف فيما ينوبهم ... لهم عند علّات الزمان أبًا مثلى [٢]

---

(١) يقول : إن اقتسم مالى أولادى فلن يقتسموا ما تفردت به من خلق كريم وفعل جميل أعدهما لزوارى.

(٢) علات الزمان : مكارهه وشدائده . وجعل نفسه أبا للأضياف لأنه يحنو عليهم حنو الأب ، وهذا على عادتهم فى تسمية المضيف أبا المثوى .

obeikandi.com

فالمال عنده قسمة بين الأبناء والإخوة والأضياف . . . وهو يعلم أن هذا المال سيئول بعده إلى الأحياء سنة تجرى بها الحياة . وأنه عند أزمات الحياة يكون أباً للأضياف . . . فالمجتمع بهذا أسرة كبيرة متكاملة يشترك أفرادها فى طيباتها ويتحملون معاً مسئولياتها .

ويذكر الآلوسى بعد ذلك: « أن العرب كانت لهم نار تسمى نار القرى ، وهى نار الضيافة توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل . وكانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة لتكون أشهر » .

ثم يعقب على ذلك بنص يندر أن نجده فى تراث حضارى فيقول عن نار القرى: « وربما أوقدوها بالمندلى الرطب وهو عطر ينسب إلى مندل ، وهى بلدة من بلاد الهند ونحوه مما يتبخر به ، ليهتدى إليها العميان . . . وكانوا يقتنون الكلاب لأمور منها أنها تدل الأضياف على منازلهم بنباحها » (١ : ٦٩ — ٧٠)

فهنا نجد أن العربى القديم قبل الإسلام ، قد فتح أمام الضيف أكثر من طريقة يصل بها إلى داره فاستعان بأكثر من حاسة :

النظر . . فأوقد له نار القرى .

الشم . . فأضاف إلى النار أخشاباً عطرية .

السمع . . فاقتنى الكلاب لتنبح وتدل الضيف .

وليس وراء ذلك غاية فى الكرم واحترام الإنسان .

ومن روائع تقاليدهم فى مؤتمر عكاظ ، ما قصه المرزوقى من أن العرب كانوا إذا غدر الرجل أو جنى جناية عظيمة ، انطلق أحدهم حتى يرفع له راية غدر بعكاظ ، فيقوم رجل فيخطب بذلك الغدر فيقول :

« ألا إن فلان بن فلان غدر فاعرفوا وجهه ، ولا تصاهروه ولا تجالسوه ولا تسمعوا منه قولا » فإن أعتب (عفى عنه بعد دراسة أمره) ، وإلا جعل له مثل مثاله فى رمح فنصب بعكاظ فلعن ورجم . . . وذلك

هو « الرجل اللعين » . . . وأنت ترى فى هذا صورة لما يحدث من رجم إبليس فى مناسك الحج ، رجماً للشر ومصدره .

فمن الناحية التاريخية البحتة كان لهم أصل عميق تنبع منه فضائلهم ويردون إليه حضارتهم وأعرافهم .

وهذا السمو الروحى فى قطاع واحد من قطاعات الحياة وهو إكرام الضيف ، ارتبط بقطاعات أخرى من الحياة الدينية كان من مظاهرها تعظيم الكعبة وتوفير الطعام والشراب لزوارها ، وما التزموه من إيقاف الحروب فى الأشهر الحرم ، وعدم دخولهم الكعبة بثياب عصوا الله فيها .

وتشددت قريش فى أمر الدين حتى أطلق عليهم اسم « الحُمس » أى المتشددون فى الدين . وأرجعوا هذه الفضائل إلى دين إبراهيم عليه السلام ، وإن أدخلوا عليه ما ليس منه .

إلى جانب ذلك نذكر جوانب من حياتهم ، كاتخاذهم أصناماً يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ، وقيام بعض قبائلهم فى ظروف خاصة بوأد البنات وهو ما نعاه عليهم القرآن ، وكبعض أنواع الزواج . . . كل أولئك نذكره فنأباه ، ونراه مرحلة إذا كان آباؤنا قد مروا بها أو انحدروا إليها ، فإن الآفاق الحضارية والروحية الجديدة التى اتجهوا إليها بعد أن استبانوا طريقها ، تأبى عليهم أن يرتدوا على أعقابهم بعد تقدم .

٢ ــ تقييم

فنحن إذن نجد أنفسنا ــ وبين أيدينا تراث ضخم نعرف منه وننكر ، ونقبل ونرفض ، فيه أمور نحس أنها قريبة من أنفسنا ، وإن كانت تفصل بيننا وبينها آلاف السنين ؛ بينما فى حاضرنا الإسلامى أمور كثيرة

نود أن نخلص منها ، برغم أنها تعيش فى مجتمعنا ، مثل ذلك التفاوت الرهيب بين مستويات الحياة الاقتصادية فى أرض العروبة والإسلام من ناحية ، ثم ما بين هذه الأرض وبين الدول المتقدمة من فارق علمى وتكنولوجى .

فكأن القيم الحضارية والروحية فى مجتمعنا تستطيع أن تلغى الإحساس بالزمن ، تقرب بعيداً وتبعد قريباً .

ولا يقتصر هذا على مجال الفكر وحده ، وإنما يمتد إلى الأشياء . . . إلى الإبداع الإنسانى . ولنذكر لذلك أمثلة :

أنت تزور مسجداً أو كنيسة عتيقة أو معبداً قديماً ، يرجع إلى ما قبل المسيحية والإسلام فى مناطق الاستقرار من أرضنا العربية ، حيث قامت الحضارات المصرية والسبئية والنبطية والآرامية والسريانية والسومرية ؛ فتحس إعجاباً فنياً وتقديراً لجهد بذل منذ آلاف السنين ، اشترك فيه كثيرون من الفنانين المجهولين . فتحس هذا الجهد قريباً من نفسك . وقد تدور عينك فى نظرات متتابعة بين آثار يفصل بينها آلاف السنين ، ويجمعها مكان واحد ، وتضمها نفسك فى إعجاب وتقدير . وعكس هذا قد تجده فى أمر معاصر يعايشك : وقد ترى فيه من اتجاهات الخطوط الفنية ما يباعد بينه وبين نفسك ، أو من المضمون الاجتماعى ما تراه تبديداً لثروة قومية ، كان من الأولى توجيهها إلى ما هو أفضل .

فى عالم « الأفكار » و « الأشياء » نحن عملياً نقبل من القيم الحضارية والروحية وندع ، لنا نظرتنا الناقدة إلى تاريخنا دون أن نرتفع به إلى مستوى لا نرى فيه الأخطاء ، أو نهبط به إلى مستوى لا نرى فيه الحسنات . .

هكذا كان تقييم النبى عليه الصلاة والسلام لمآثر الجاهلية : قبل منها وترك ، وقال على باب الكعبة بعد فتح مكة : « ألا إن كل مأثرة [1] أو دم

---

(١) هى الخصلة التى تتوارث ويتحدث بها الناس .

أو مال يدّعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ... إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء . الناس من آدم ؛ وآدم خلق من تراب . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الناسُ إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شُعُوباً وقبائلَ لتَعارَفُوا إنَّ أكرَمَكُمْ عند الله أتْقَاكُم »[1] .

[سورة الحجرات : ١٣]

٣ ـ تبعات البناء الحضارى

وإذا كانت نظرتك إلى الماضى والحاضر تقريرية وتقييمية ، تأخذ وتدع ، فإن نظرتك إلى المستقبل تختلف ، فهى تقديرية تخطيطية : فأنت تود أن تضيف إليه قيماً حضارية لا تتوافر الآن فى مجتمعك ، وأن تتخلص فى الوقت نفسه من قيم أخرى .

أنت تعلم أن حضارتك تنقصها « أشياء » كثيرة : كالبناء الصناعى الكبير بكل ما يحمل من قيم التكامل بين جوانب الحياة الزراعية والصناعية .

وأنت تعلم أن حضارتك تنقصها « أفكار » كثيرة ، وأن تكوين مجتمعك لا يمكن أن يقوم إلا على أساس علمى ضخم ، هو نتاج عقول كبيرة قادرة على أن تنشئ ، دون أن تقتصر على النقل وحده بكل ما يحمل النقل وحده من مركبات النقص ، والشعور بالتبعية . وهى مرحلة

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٣ : ٦١ .

إن قبلناها فترة ، فلكى نرتفع فوقها إلى الابتكار والمساهمة البناءة .

وأنت تعلم أن الأمر لا يقتصر على مجرد « الأفكار » أو « الأشياء » ، ولكن لابد من « أسلوب » أو تخطيط تتحول به الفكرة إلى شيء ، وتثرى به الأفكار حين تتفاعل مع عالم الأشياء .

وأنت تعلم أن هذا كله ينبغى أن يتم فى أقرب وقت ممكن ، فنحن نعيش فى عالم أصبح الوقت فيه عنصراً جوهرياً من عناصر الحضارة ، دون أن يؤدى ذلك إلى « إجهاض » الفكرة أو الشيء فلابد من كفاءة عالية نختصر بها الزمن .

وعندك أولويات فى حياتك فلابد من دراسة وتقييم لهذه الأولويات حتى تبنى حياتك الجديدة . هناك إذن تطور ضخم فى عوالم الأشياء والأفكار وما يرتبط بهما من تخطيط ووقت وأسلوب يتناول هذا كله .

ومن هنا تبدو فاعلية القيم ، وضرورة النظر إليها فى أوضاعها الحركية الفعالة ، وتوجيه كل الطاقات إلى تحويل الحياة و « صناعة الحضارة » ، بكل ما تحتاج إليه من مقومات وما ترتكز عليه من قيم ، وهى بدورها تتعدل وفقاً لما توضحه الممارسة العملية ، وما يتكشف من آفاق علمية جديدة .

٤ ــ بين المبادأة والتبعية

والذى ينبغى أن نعنى به أساساً من الحضارة هو « موقفنا » منها ، ولكن ما الذى نقصده بالموقف ؟

هنا يمكن أن نقارن بين شعبين اصطدم بهما الاستعمار الأوربى فى القرن التاسع عشر ــ اليابان والشعب العربى بمدلوله الواسع من المحيط

إلى الخليج . بل لك أن تتحدث عن الشعوب الإسلامية — بعامة — بين المحيطين الهادى والأطلسى .

فمنذ أن اصطدمت اليابان بالحضارة الأوربية واستعمارها ، وجاءت سفن الجنرال « برى » موانيها فى عام ١٨٥٦ وتفتحت أعين اليابان على هذا العالم الجديد ، لم يعودوا يشعرون أنهم بأسلوبهم التقليدى — وحده — يستطيعون مغالبة التيار الجديد . وبدأت اليابان فى التعرف على هذه الحضارة تعرفاً داخلياً ، على أسرارها وعلومها : معاناة وتأياً . . كانت اليابان كخلية النحل يحس كل من فيها أنه وحده لا يستطيع أن يعيش ، وأن الحياة فى المشاركة الفعالة لبناء المجتمع الجديد ، الذى يتكون من وحدات هى قوة فى ذاتها وفعاليتها . وعندما اصطدمت اليابان بروسيا فى عام ١٩٠٥ كان هذا الاصطدام محكاً لما استطاعت اليابان أن تحصّله من الحضارة . . . إضافة لا فقداً ، وكان انتصار اليابان وقتئذ خطوة رائدة على طريق سيرها .

اليابان إذن لم تقف عند استيراد هذه الحضارة استيراداً خارجياً . لم تقف عند تحريك أزرار جهاز الراديو ، أو إدارة عجلة القيادة فى سيارة أو باخرة ، ولكنها تعمقت إلى صناعة الحضارة نفسها . هذا هو الموقف الذى استطاعت به أن تصل إلى مستواها القائم أساساً على المبادأة الحضارية .

وهذا « الموقف » تشترك فيه الحضارات المنتجة جميعاً ، على اختلاف منطلقها الفكرى : تراه فى الاتحاد السوفييتى ، كما تراه فى غرب أوربا والولايات المتحدة . وقد تتصارع هذه الأيديولوجيات أو تتعايش تعايشاً جزئياً أحياناً ، ولكن لكى يكون لها وزنها العالمى ، لابد أن تكون صانعة حضارة .

والموقف الثانى : هو استيراد الحضارة ، والوقوف منها موقفاً خارجياً ،

يكتفى فى الأغلب بالاستخدام والاستهلاك دون الإنتاج . وهذا الموقف هو الذى اتخذته شعوبنا ــ أو اضطرت إلى البدء به ــ منذ منتصف القرن التاسع عشر . فكانت تجمع الإنتاج الحضارى دون أن تصنعه . ولاشك فى أن جانباً كبيراً من مسئولية ذلك تقع علينا كشعوب . وما ينبغى أن نلقى المسئولية ــ كل المسئولية ــ على ما صنعه معنا الاستعمار . فمن طبيعة الصراع أن نجد من الاستعمار الحرب الضارية ، والمحاولات المستمرة لمنعنا من تكوين قاعدة حضارية فعالة . من أجل ذلك بدأت بذكر نموذج اليابان لأنها كانت إلى حد بعيد فى نفس موقفنا من الصراع مع الاستعمار الغربى . وإن كانت لها من ظروفها السياسية ما رأت فيه بعض هذه الدول تدعيمها ــ أو على الأقل ــ عدم وضع عقبات كثيرة فى طريقها ، حتى تقوى وتستطيع الوقوف أمام قوة روسيا القيصرية فى مطلع القرن العشرين .

كان استيرادنا للحضارة الغربية إذن ظاهرياً فى الأغلب ، ولم يتجه وطننا العربى إلى صناعة الحضارة صناعة أصيلة إلا بعد استطاعته تحطيم بعض قيود الاستعمار ، وإزالة جانب من العقبات التى تصحبها على طريق التقدم ، ولعل من أكبر ما يميز التطور العربى المعاصر هو هذه الظاهرة : محاولة صناعة الحضارة دون مجرد الوقوف من الغرب موقف المستورد . . . هذا الموقف تتخذه الشعوب العربية والإسلامية على درجات متباينة من الفعالية ، وإن اتجهت إليه جميعاً الآن .

٥ ــ أخلاقيات التطور الجديد

الفرق الكبير بين صناعة الحضارة واستيراد أشيائها يبدو ــ أكثر ما يبدو ــ فى إحساس المواطن بمسئولية نحو المجتمع الذى يعيش فيه .

فالمنتج الصناعى يحمل مسئولية المصنع ، بكل ما يرتبط بها من إعداد للقوى البشرية والخامات وتكاليفها ، والوقت اللازم لإنتاج السلعة فى المستوى الذى رسمه ؛ فى حين أن المستهلك « يستمتع » ولا يحمل من المسئولية ، من حيث نوعيتها ، ومدى ارتباطها بمصير وطنه ، مثلما يحمل الصانع نفسه .

ولو وسعنا هذا المعنى ، لأعطانا مؤشراً قوياً إلى كثير من القيم التى يمكن أن يثرى بها المجتمع ويتقدم .

بل إن ذلك المنتج الصناعى ، ليحمل مسئولية مايصنع ، أمام المناطق التى تستهلك منه إنتاجه ، وهو يوالى البحث ، تطويراً لها وارتفاعاً بها ، كى تستطيع أن تزيد من تثبيت أقدامها أمام إنتاج دول أخرى .

والذى يعنينا فى حديث القيم ، هو أن هذه القيم الإيجابية ، من تحمل المسئولية ، لايمكن أن تتوافر إلا فى مجتمع يصنع حضارته ، ولا يكتفى بالعيش على أمجاد حضارة سابقة ، يقف منها موقف المضيع الغافل ، أو الوارث المعجب ، دون أن تتحول عنده طاقة الإعجاب إلى إنتاج جديد .

ونحن فى هذه التربية الجديدة نجد أصدق العون من ديننا . فهو يدعونا إلى العلم ويجعل طلبه عبادة وفريضة ، ويدعونا إلى السير فى الأرض اكتساباً للمعرفة والتجربة والرزق .

يدعونا إلى مهمة البحث والتخطيط ، ويعطينا النماذج على هذا من النبوات السابقة ، ومن حياة النبى عليه الصلاة والسلام ، وهو يؤكد المسئولية الخاصة والعامة فى الوقت نفسه ، ويدعو إلى إحسان العمل وإتقانه ويعلمنا الرسول عليه السلام فيقول : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » بل إنه ليصل بإتقان العمل إلى جعله مادة حساب وجزاء يوم القيامة . وفى هذا نقرأ قول الله : « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الذِينَ إِذَا اكْتَالُوا

عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وإذا كَالُوهُمْ أو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * ألا يَظُنُّ أولئك أنهم مَبْعُوثُون ليَوْمٍ عظيم * يومَ يقومُ الناسُ لِرَبِّ العالمينَ » [المطففين ١ : ٦]

هناك إذن مجالات واسعة للربط بين ما جاء به الإسلام من أخلاق ، قال فيها الرسول عليه السلام : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وبين ما نحتاج إليه دعماً لقيمنا الحضارية الجديدة فى مجالات بناء الشخصية والمجتمع والتعاون العالمى .

أخلاقيات الإسلام دافع إلى البناء الحضارى ، وضابط له دون الانحراف ، وحافظ لمستواه . والبناء الحضارى — من ناحية أخرى — فى حاجة إلى هذه القيم . . هذا البناء الجديد يفتح آفاقاً جديدة تعمل فيها هذه الأخلاقيات . . فالتفاعل والإثراء بينهما متبادلان فى مسيرة صاعدة ، تثرى بها الحياة كما يثرى بها الدين .